التأليف عند الجاحظ

أ.م.د. عبد الحسن حسن خلف
الجامعة المستنصرية-كلية التربية الأساسية

مقدمة

لاأريد التعريف بشخصية هذا المؤلف، فلقبه "الجاحظ" أشهر من التعريف وكنيته "أبو عثمان" اقل شهرة، وكتبه اكثر منه شهرة، "والكتاب قد يفضل صاحبه، ويتقدم مؤلفه"[١] باعتراف الجاحظ نفسه، وقد أحب الجاحظ الكتاب قارئاً ومؤلفاً، وفي مراحل حياته كلها متعلماً ومعلماً وعالماً، وقد أثمر هذا الجهد الطويل المتواصل فألّف "كتباً كثيرة مشهورة جليلة في نصرة الدين، وفي حكاية مذهب المخالفين وفي الآداب والاخلاق، وفي ضروب من الجد والهزل، وقد تداولها الناس وقرأوها، وعرفوا فضلها، واذا تدبر العاقل المجد أمر كتبه علم- انه ليس في تلقيح العقول وشحذ الأذهان ومعرفة أصول الكلام وجواهره، وإيصال خلاف الاسلام ومذاهب الاعتزال- كتب تشبهها"[٢]، مما يجعل القارئ أمام مؤلف بارع قد اجتهد في التحصيل، وامتلك "من الذكاء وسرعة الخاطر والحفظ بحيث شاع ذكره، وعلا قدره، واستغنى عن الوصف"[٣]، واتبع طريقة في التأليف تفرد بها عن علماء عصره، ولم يسبقه اليها احد، وما استطاع احد من الذين أتوا بعده ان يلحق به، ونتيجة لهذا كله ان كثر حساده والمعجبون به، وقد أثر هذا في نفسه باعتباره أديباً نابهاً وانساناً حساساً، حتى عانى وشكا وتبرم، فقد عانى من متاعب التأليف وسقطاته، وشكا من انتقادات قرائه ومآخذهم على كتبه فعاتبهم ورفق بهم ودعا لهم، وتبرم بحساده الطاعنين عليه فحذرهم وخاف منهم، ونتيجة لهذا وذاك ان احترز في تأليفه واجتهد في تنقيح كتبه.

لقد حاول هذا البحث ان يدرس هذه الجوانب تحت مباحث ثلاثة: الاول عن المؤلفين ومصادر تحصيلهم واهدافهم من التأليف والعوامل التي تشجعهم عليه، والثاني: عن طريقة التأليف التي تناسب حجم الكتاب، ومصطلحاتها عند القدماء والمحدثين، وماكان الجاحظ يفضله منها، ومقاصده فيها، والمتاعب التي واجهها فيها، والمطاعن التي

---

[١] الحيوان ٨٥/١.

[٢] معجم الأدباء ٧٦/١٦.

[٣] المصدر نفسه ٧٤/١٦.

وجهت اليها، والثالث: عن القراء والتنقيح، ويبحث عن هموم المؤلف النفسية والعقلية وعلاقته بقرائه، مطاعنهم على كتبه، وما يعرض في الكتب من أخطار وسقطات، وما يبذله المؤلف من جهد في الاحتراز منها وتنقيحها.

وبعد: فإن بحثي هذا لم يكن الوحيد عن الجاحظ، فقد كتبت عنه بحثاً سابقاً، وما زلت احتفظ بأبحاث آخرى، ولا ادعي انني فهمته، أو كشفت عن أسراره وغوامضه، فهو أبعد من ان يحاط به، أو تسبر أغوار نفسه واسرار فكره، ولكن الشيء الذي استطيع قوله انني مازلت من قرائه الحاسدين له والمعجبين له، فأدعو الله ان يعصمني من شرور الحسد وفتنة الإعجاب.

المبحث الأول: المؤلفون بين التحصيل والتأليف

المؤلفون عند الجاحظ هم العلماء الذين "وضعوا الكتب في ضروب العلوم وفنون الآداب لأهل زمانهم والاخلاف من بعدهم، يزدلفون بذلك إلى الممتن عليهم بفضل المعرفة التي ركبها الله فيهم، وابانهم من غيرهم، وفضلهم عليهم"[١]، والشيء الذي نود قوله هنا ان العلماء الذين فضلهم الله على غيرهم وأبانهم هم الذين امتازوا عن غيرهم بإيمانهم وعلمهم ((يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير))[٢]، بينما جعلهم الجاحظ يزدلفون بعلمهم إلى الممتن عليهم، أي يتقربون زلفى إلى أصحاب الفضل عليهم بعطاياهم وهباتهم، فهناك أربعة أهداف متداخلة للتأليف عند الجاحظ:

الأول- ديني ذكره الجاحظ أثناء حديثه عن استعمال المعرفة والاستدلال والارتقاء من المعرفة الحسية إلى المعرفة العقلية، فأشار إلى "ان الله عزّ وجل لم يردد في كتابه ذكر الاعتبار والحث على التفكير، والترغيب في النظر وفي التثبت والتعرف، الا وهو يريد ان تكونوا علماء من تلك الجهة، حكماء من هذه التعبئة"[٣].

وإذا ارتقى الإنسان إلى مرتبة العلماء فاستخدم التفكير والنظر والتثبت والتعرف وللاستدلال على وجود الله والايمان بوحدانيته، فإن إيمانه لايقتصر على اعتقاده، وانما ينعكس على عمله، والتأليف بلا شك عمل خالد من أعمال الإنسان حتى يتآزر العلم

---

[١] مجموع رسائل الجاحظ، فصل مابين العداوة والحسد، ص١٦٦.

[٢] المجادلة/١١.

[٣] الحيوان ١١٥/٢.

والعمل، "ليكون عمل الدنيا سلماً إلى عمل الاخرة... حتى لايرضى من العلم والعمل إلا بما أداه إلى الثواب الدائم، ونجاه من العقاب الدائم"[١].

والهدف الثاني مادي يعود على المؤلفين بنفع مادي على شكل هبات أو جوائز يحصلون عليها من الخلفاء والحكام والامراء، فقد ذكرنا قبل قليل ان العلماء عند الجاحظ "وضعوا الكتب في ضروب العلوم وفنون الاداب لاهل زمانهم والاخلاف من بعدهم، يزدلفون بذلك إلى الممتن عليهم" وتقربهم إلى الممتن عليهم يرفع من مكانتهم وعلو شأنهم واتساع شهرتهم، فضلاً عن حصولهم على الاموال، والجاحظ نفسه "تلقى مبالغ كبيرة من المال نظير اهدائه كتبه"[٢]، وهي عادة دأب القدماء عليها، وخسرها المؤلفون المحدثون، لانتشار الطباعة، وكثرة المؤلفين، واختلاط حابلهم بنابلهم.

يمكن ان نطلق على الهدف الثالث للمؤلفات هدفاً فكرياً أو عقائدياً وفيه يضع العلماء "الكتب في ضروب العلوم وفنون الآداب لأهل زمانهم والاخلاف من بعدهم... يباهون به الامم المخالفة لهم، ويتبارون فيما بينهم"[٣].

وتظهر هذه المؤلفات اثناء الازمات الثقافية وتصارع المذاهب الفكرية وظهور المدارس الادبية وتعدد الأحزاب السياسية، فعند ظهور الاسلام وانتشاره اختلط المسلمون بأقوام عدة وطوائف مختلفة، واعتنق المسلمون انفسهم مذاهب متعددة، فظهرت كتب تؤرخ للملل والنحل، وأخرى تعرض عقائد الفرق الاسلامية، وثالثة ترد على الزنادقة والشعوبية يأمل أصحابها منها مفاخرة الامم المخالفة لهم في مناقضتها والاعتراض عليها وبيان بطلانها. ومن الملاحظ ان هذا النوع من الكتب يصعب وضعها أو نشرها الا في ظروف مناسبة لها وأجواء تشجعها وأهمها التسامح الفكري واحترام حرية الرأي.

الهدف الرابع للمؤلفات علمي، يفوق الاهداف كلها، ويسمو عليها، وهو الغاية التي وضعت المؤلفات من اجلها، وفي ضوئه تتحدد قيمتها ومستوى ابداعها وقدرة اصحابها، ولايختلف في أهميته قديم ومحدث أو خصم ومخالف، الا إذا كان لجوجاً معانداً أو حاسداً معارضاً، "فلم يخل زمن من الازمان فيما مضى من القرون الماضية الا وفيه علماء محقون، قد قرأوا كتب من تقدمهم ودارسوا اهلها ومارسوا لهم، وعابوا المخالفين عليهم

---

[١] الحيوان ١١٦/٢.

[٢] دائرة المعارف الاسلامية "الجاحظ" ٣٧٩/١٠.

[٣] مجموع رسائل الجاحظ، فصل مابين العداوة والحسد، ص١٦٦.

فمخضوا الحكمة، وعجموا عيدانها، ووقفوا على حدود العلوم، فحفظوا الامهات الاصول، وعرفوا الشرائع والفروع، فقرنوا مابين الاشباه والنظائر، وصاقبوا بين الأشكال والاجناس، ووصلوا بين المتجاور والمتوازي، واستنبطوا الباطن بالظاهر البين، واستظهروا على الخفي المشكل بالمكشوف المعروف، وعرفوا بالفهم الثاقب والعلم الناصع، وقضت لهم المحنة بالذكاء والفطنة، فوضعوا الكتب في ضروب العلوم وفنون الاداب لاهل زمانهم والاخلاف من بعدهم"[١].

والجاحظ يفرق بين نوعين من العلماء، أطلق على الأول علماء محقين، وتسميتهم تدل عليهم، لاتصافهم بالرصانة والحرص على الصدق والسعي وراء اليقين[٢]، والنوع الثاني "وسموا انفسهم بسمات الباطل، وتسموا بأسماء العلم على المجاز من غير حقيقة... اتخذهم المعادون للعلماء والمحقين عدة يستظهرون بهم عند العامة"[٣].

ولايخلو أي زمان من هؤلاء واولئك، وانصار هؤلاء ضعفاء العامة وجهلاء الملوك وضعفة القلوب وأذلة الناس، واساليبهم الحيل واستمالة القلوب، ودافعهم الحسد، واهدافهم الاستظهار، أي طلب الشهرة وبشاشة العامة والرياسة[٤].

أما أولئك المحقون فأنصارهم أهل زمانهم والاخلاف من بعدهم، الذين وضع اولئك العلماء الكتب في ضروب العلوم وفنون الاداب من أجلهم، وأساليبهم قراءة كتب من تقدمهم ومدارسة اهلها، وفي هذا حفاظ على التراث الانساني وتواصل فكري وحضاري بين الأجيال. واهدافهم ان يمخضوا الحكمة ويعجموا عيدانها ويقفوا على حدود العلوم، وكم من عناء ومكابدة في هذا، فطريق العلم وعر ومراسه صعب، ونريد ان نقف عند هذه الاستعارات البديعة التي استخدمها الجاحظ للتعبير عن تلك الدلالات، فالعلماء المحقون في كل زمان مخضوا الحكمة، فمخض اللبن ان يؤخذ زبده، و"المخاض" بالفتح وجه الولادة، وقد "مخضت" الحامل بالكسر أي ضربها الطلق[٥]، وفي هذه المعاني دلالتان: عناء ونتاج، فاللبن يحتاج إلى "ممخضة" وامرأة تقضي وقتاً غير قصير في تحريكها

---

[١] مجموع رسائل الجاحظ، فصل مابين العداوة والحسد، ص١٦٥-١٦٦.

[٢] ينظر: مختار الصحاح "حقق".

[٣] مجموع رسائل الجاحظ، فصل مابين العداوة والحسد، ص١٦٦.

[٤] ينظر: المصدر نفسه، ص ١٦٦-١٦٧.

[٥] ينظر: مختار الصحاح "مخض".

والعناية بنظافتها حتى تمخض زبدها، وكم تعاني النساء البدويات من جهد وتعب في هذه العملية التي لم يدركها الحضريون الذين يشترون الزبد واللبن من السوق جاهزاً قد دخل معامل صناعة المنتجات الحيوانية. وكم كانت تعاني المرأة البدوية من وجع ومخاطرة بحياتها عندما يضربها الطلق ويحين وقت الولادة، دون ان تجد مستشفياً تؤمن لها العلاج وتقيها العسر، وكم كان فرحها عندما ينتهي مخاضها بوليد سالم ظفرت معه بسلامتها، والحكمة هي الأخرى لبن غير ممخوض وامرأة حامل، وكم يبذل العلماء المحقون من جهد، ويلاقون من تعب، ويقضون وقتاً في قراءة كتب من تقدمهم ومدارسة أهلها وممارستهم كي يمخضوا زبدها أو وليدها وهو "الحقيقة" التي تسر العين وتثلج النفس ويطمئن اليها القلب.

وإذا مخضوها فعليهم أن "يعجموا عيدانها"، "والعجم العض، وقد "عجم" العود من باب نصر إذا عضه ليعلم صلابته من خوره"[1]، والعاض قد تكسر البنانة في عود صلب أو يذوق طعماً مراً، وكم شعر علماء محقون بالمرارة في سعيهم وراء الحقيقة، وقد شردوا احياناً واضطهدوا ومنهم من ضحى بحياته من اجل الحقيقة، ومصادر هذه المتاعب عديدة، وتقف الحقيقة نفسها في مقدمتها، فإذا كانت الحقيقة ترضي أصحاب العقول النيرة والقلوب النظيفة، فهي قد تعادي وجهات نظر سياسية واجتماعية لاخرين وقد لاتتفق مع آراء دينية، واحياناً تصطدم مع عادات قديمة الفها الناس واعتادوا عليها[2]، وعندما كنت طالباً في الثانوية سمعت صديقاً نابها يروي فكرة لفيلسوف لم يذكره عن الحقيقة مؤداها: ان الناس قد قتلوا الحقيقة ودفنوها في التراب، ثم اخذوا يبحثون عنها، ولو عثروا عليها لولوا عنها، لأن رائحتها كريهة تؤذيهم.

وإذا سمح لي ذلك الصديق البعيد والفيلسوف المجهول ان أصحح لهما هذه الفكرة فأقول: ان فيها تعميم وتشاؤم فليس الناس كلهم قد قتلوا الحقيقة ودفنوها في التراب، فللناس في كل العصور والامصار ضمائر حية، ومنهم في كل عصر يقلون أو يكثرون– من اعتادوا القتل، واعرضوا عن الحقائق أو حاربوها، ولكثرة مااعتادوا واعرضوا ماتت ضمائرهم، وقست قلوبهم، وزكمت انوفهم.

---

[1] المصدر نفسه "عجم".

[2] ينظر: العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث، ص٢٣١.

استعان العلماء القدماء بمصادر عدة في التحصيل العلمي والتأليف، وقد أشار الجاحظ إليها دون ان ينص عليها، فقد ذكر بعد حديثه عن صعوبة العلم، ان الانسان لايستطيع ان يحيط علمه بكل مافي جناح بعوضة ايام الدنيا، حتى "ولو استمد بقوة كل نظار حكيم، واستعار حفظ كل بحاث واع، وكل نقاب في البلاد، ودراسة للكتب"[١]، فالمناظرة والحفظ الواعي والتطواف في البلاد ودراسة الكتب مصادر علمية حرص القدماء عليها، وساعدتهم حياتهم البسيطة على اعتمادها، فضلاً عن عوامل ثقافية شجعتهم عليها، وساعدتهم حياتهم البسيطة على اعتمادها، فضلاً عن عوامل ثقافية شجعتهم عليها، فقد ازدحمت الهيئة الاسلامية بفرق عديدة، واختلطت معها ملل مختلفة، وتصارعت على ارضها حركات فكرية متناقضة، فكانت المناظرة اسلوباً لنشر المعتقدات والدفاع عنها ومناقشة خصومها، يظهر المتناظرون من خلالها قوة حججهم وبراعة اسلوبهم.

ولم تكن هناك وسائل طباعة متوفرة، مما دفعهم إلى الاعتماد على الذاكرة في تحصيل ثقافتهم وحفظ تراثهم، وقد اشترط في الحفظ الوعي والتدبر، فقد روى الجاحظ عن دغفل بن حنظلة انه عاب الاستجاعة في العلم "لسوء تدبير اكثر العلماء، ولخرق سياسة اكثر الرواة، لأن الرواة إذا شغلوا عقولهم بالازدياد والجمع، عن تحفظ ماقد حصلوه وتدبر ماقد دونوه، كان ذلك الازدياد داعياً إلى النقصان، وذلك الربح سبباً للخسران"[٢]، والخسران الذي يخشاه الجاحظ نوعان:

نسيان ماحفظوه، أو عدم الاستفادة منه في التأليف، فيقتصر العمل على الازدياد والجمع، وهي مرحلة اولية في منهج البحث العلمي، "لانقاش في ضرورتها، لانها مرحلة تهيئة المادة الخام للبناء الجديد، ومن الناس من يأنس بها وينسجم واياها، ولانراه الا وهو يجمع ويجمع... ولاتبعثك هذه الظاهرة على التفاؤل المطلق، لان عدداً من هؤلاء تقف قابلياتهم عند هذا الحد، حتى إذا اراد ان يبني صعب عليه الأمر، وبدأ يضيق بالمرحلة الجديدة"[٣] وهي التأليف، وقد نقل الجاحظ احاديث عن علماء اختلفت مواقفهم في التحصيل العلمي بين الاعتماد على الكتب والرواية والحفظ، فوصفوا احدهم بأنه كلف الكتب ماليس عليها، وانشد رجل يونس النحوي:

---

[١] الحيوان ٥/٢٠٠.

[٢] البيان والتبيين ١/٢٧٣-٢٧٤.

[٣] منهج البحث الادبي، ص١١٠.

استودع العلم قرطاسا فضيعه

فبئس مستودع العلم القراطيس

إلا أنهم اتفقوا على ان القليل والكثير للكتب، وان القليل أصلح للحفظ، ويكون الكثير معرفة[١] مما يعني ان الثقافة تمر بمرحلة انتقالية بين الاعتماد على الوسائل التقليدية في التحصيل العلمي وهي الرواية، وبين الوسائل الحضارية وهي الكتب، والاعتماد على الجمع بينهما يدل على مرحلة انتقالية تتردد في التضحية بأحدهما.

أما الرحلة في البلاد طلباً للعلم فعادة قديمة تثير الاعجاب، واذا نظرنا اليها على وفق ظروف عصرنا، بدت لنا سهلة ولكنها مضنية، فهي سهلة في اجراءاتها، لأنها لاتحتاج إلى جواز سفر وموانع حدودية ورسوم جمركية، فالأرض بما وسعت وطن للجميع يستطيعون السفر إلى أي مصرفيها متى شاءوا أو رغبوا، وفي أي وقت ضجروا أو ضاقت عليهم فيه سبل العيش. ولكنها مضنية في وسائل نقلها والجهد المبذول فيها والمسافات البعيدة بين اوطانها والوقت الطويل الذي يتطلبه طريقها.

أشار الجاحظ إلى عوامل تشجع الباحث على التأليف، وهي "افراط الشهوة، وفراغ البال، وبعد الامل، وقوة الطمع في تمامه، والانتفاع بثمرته، ثم مد له في العمر، ومكنته المقدرة"[٢]، وقسم منها يرجع إلى عوامل نفسية، وآخر إلى عوامل اقتصادية، وتوفرها ضروري لأي عمل يزاوله الانسان ويرغب فيه أو يحاول أو يشتهر به، الا ان التأليف نشاط يختلف في طبيعته ومؤهلاته عن الاعمال الأخرى، مما يحتم ان نفهم هذه العوامل ونفسرها على وفق طبيعة هذا النشاط، فإفراط الشهوة يعني تجاوز الحد فيها[٣]، وقد جعل الله تبارك وتعالى "لكل نفس مبلغاً من الوسع لايمكنها تجاوزه ولاتتسع لأكثر فيه"[٤]، فإذا تجاوزت شهوة الطعام حدها انقلبت إلى تخمة واذا انهمك الراغب في عمله وتجاوز طاقته أصابه الإعياء والارهاق، "كل ذلك ما لم يأت المال والعلم، فإنه كلما كثر كان اشهى وأعجب، لان قصد الناس له ليس لطلب مقدار الحاجة وسوء الخلة كما يريده أهل القناعة والزهادة، وإنما يراد لقمع الحرص والحرص لا حد له ولا نهاية، لأنه سعى لا لحاجة

---

[١] ينظر: الحيوان ٥٩/١، ٦١.

[٢] الحيوان ٢٠٠/٥.

[٣] ينظر: مختار الصحاح "فرط".

[٤] فلسفة الجد والهزل، كتمان السر وحفظ اللسان، ص٧٨.

وإيضاح لا لبغية"[١]، فالأمر يتعلق بطبيعة الحاجة واشباعها، والعلم والتأليف فيهما حاجة عقلية، والعقل جوهر لايحد، بخلاف المعدة مثلا عندما تمتلئ تشبع حاجتها إلى الطعام، فإذا جاوزت الاشباع رخمت والعلم نفسه –الذي هو حاجة العقل– متجدد، و"اوسع من ان يحاط به"[٢] ولهذا يكون افراط شهوة المؤلفين مرتبط بتلك النهمة التي تنسب لطلاب العلم، أي ان طلاب العلم بفرعيها: القارئ والمؤلف فهومان، والعامل الثاني الذي يؤثر في التأليف هو فراغ البال، ويطلق "البال" أما على مايخطر بالقلب، أو على رخاء النفس[٣]، والدلالة الاولى تعني في مفاهيمنا الحديثة "الذاكرة"، واذا قسنا عبارة الجاحظ "فراغ البال" عليها، نجدها قاصرة في التعبير عن مدلولها، مما يجعل الدلالة الثانية "رخاء النفس" أنسب في التعبير عما يتطلبه التأليف من راحة نفسية بعيدة عن الهموم والخوف، فالمؤلف الذي حرم من الاستقرار وعانى الحزن وفقد الامان، يصعب عليه ان يتفرغ لمجهود عقلي يتطلبه التأليف، واذا استطاع ان يغالب الواقع، ويقهر الظروف فينعكس هذا على مستوى ابداعه ومضامين تأليفه. ولهذا يكون "بعد الامل" عاملاً ثالثاً مشجعاً على التأليف، لان المؤلفين المبدعين والعلماء البارزين لاينظرون إلى اعمالهم العلمية من أفق ضيق وظرف قريب، وانما هي اعمال تخلدهم وتدل عليهم، ولهذا تكون العزيمة ولطافة النظر وصدق الحس والعناية البعيدة عن السآمة[٤]، صفات تميزهم ونفهم "بعد الامل" على انه الطموح الذي يراود كل انسان دؤوب، الا ان المؤلفين والعلماء يختلفون عن الآخرين في درجته، فلم يكن طموحهم نتيجة نزوة شخصية أو مغامرة صبيانية وانما هو ثمرة إعداد علمي ومؤهلات عقلية وجهد متواصل.

وطموحهم يختلف باختلاف عصورهم، فقد كان طموح القدماء ان يظفروا بمجد، وذلك بأن يسلكوا طريقاً صعباً وطويلاً، يؤهلون انفسهم فيه علمياً وعقلياً من خلال الرواية الكثيرة والحفظ الجيد والتلمذة الطويلة والقراءة المتواصلة "فقد قرأوا كتب من تقدمهم ودارسوا أهلها ومارسوا لهم، وعابوا المخالفين عليهم فمخضوا الحكمة وعجموا عيدانها، ووقفوا على حدود العلوم، فحفظوا الامهات والاصول، وعرفوا الشرائع والفروع، ففرقوا مابين الاشباه

---

[١] فلسفة الجد والهزل، كتمان السر وحفظ اللسان، ص٧٩.

[٢] المصدر نفسه، ص ٨٠.

[٣] ينظر: مختار الصحاح "بول".

[٤] ينظر: الحيوان ٥/٢٠٠.

والنظائر، وصاقبوا بين الأشكال والاجناس، ووصلوا بين المتجاور والمتوازي، واستنبطوا الباطن بالظاهر البين، واستظهروا على الخفي المشكل بالمكشوف المعروف، وعرفوا بالفهم الثاقب والعلم الناصع، وقضت لهم المحنة بالذكاء والفطنة"[١]، ويختلف المجد الذي يسعون وراءه من خلال هذه الرحلة الشاقة الطويلة باختلاف نوازعهم واتجاهاتهم الفكرية، فقسم منها "يزدلفون بذلك إلى الممتن عليهم"[٢]، ليطرقوا أبواب الخلفاء والولاة والحكام، ليحصلوا على جوائزهم وهداياهم[٣]، وآخرون غايتهم المنالة، وهم الذين وضعوا كتباً قيمة عسيرة الفهم ليكتسبوا بهذا التدبير[٤]، وهؤلاء معلمون متكسبون. ومنهم من يعد نفسه لان يكون فقيهاً أو قاضياً أو عاملاً أو حاكماً على بعض الأمصار[٥]، ويمكن ان نطلق على هؤلاء علماء سياسيين، وآخرون راغبون في ان يعلموا ويجمعوا العلم، ليختلف اليهم طلابهم[٦]، ويمكن ان نطلق على هؤلاء علماء معلمين، يحبون العلم والتعليم يأملون منه ان يؤهلوا طلاباً معجبين بهم ومتأثرين بطرائقهم ومناهجهم. أما الآخرون فقد أخرنا ذكرهم، وان كانوا سابقين في رتبتهم، لأنهم لايلهثون وراء الذكر، ويعملون أحياناً خلف الأضواء، لأنهم يسعون إلى إصابة الحكمة والنطق بها[٧]، والحكمة هي العلم بعينه، وصاحبها هو العالم المتقن للأمور[٨]، وهؤلاء هم العلماء المحقون الذين "لم يخل زمن من الأزمان فيما مضى من القرون الذاهبة الا وفيه علماء"[٩] منهم. ويعد الجاحظ بشهادة معاصريه والمتأخرين عنه أحدهم، لذكائه وسرعة خاطره وجود، حفظه وشيوع ذكره وعلو قدره[١٠]، فقد وضع "كتباً كثرة مشهورة جليلة في نصرة الدين وفي حكاية مذهب المخالفين وفي الاداب والاخلاق، وفي ضروب من الجد والهزل، وقد تداولها الناس وقرأوها وعرفوا فضلها، واذا

---

[١] مجموع رسائل الجاحظ، فصل مابين العداوة والحسد، ص١٦٥-١٦٦.

[٢] المصدر نفسه، ص ١٦٦.

[٣] ينظر: حلية المحاضرة ١٧٧/١.

[٤] ينظر: الحيوان ٩١/١-٩٢.

[٥] ينظر: المصدر نفسه ٨٧/١.

[٦] ينظر: المصدر نفسه ٥٥/١.

[٧] ينظر: البيان والتبيين ٢٧٤/١.

[٨] ينظر: مختار الصحاح "حكم".

[٩] مجموع رسائل الجاحظ، فصل مابين العداوة والحسد، ص١٦٥.

[١٠] ينظر: معجم الادباء ٧٤/١٦.

تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم انه ليس في تلقيح العقول وشحذ الأذهان ومعرفة اصول الكلام وجواهره وإيصال خلاف الاسلام ومذاهب الاعتزال- كتب تشبهها، والجاحظ عظيم القدر في المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الامور"[١].

لقد أشار الجاحظ إلى عامل رابع يشجع على التأليف هو قوة الطمع في تمام الكتاب والانتفاع بثمرته، ومطامع المؤلفين في كتبهم قديماً وحديثاً هي ان تنسخ أو تطبع فيتداولها الناس ويقرأونها ويعرفون فضلها، وقدر عليهم مبالغ نتيجة اهدائها إلى أحد الممتنين عليهم من الخلفاء أو الولاة عند القدماء، أو نتيجة إقبال القرّاء على شرائها مما يؤدي إلى نفاد طبعاتها من الاسواق، كما هو مألوف عن الكتب النادرة والقيمة في عصرنا، ولذلك يحصل المؤلفون المبدعون على شيئين ثمينين هما: المال والشهرة، وشيء ثالث حرص القدماء عليه هو ان يورثوا ابناءهم كتبهم وعلمهم، "وخير ميراث ورث كتب وعلم"[٢]، وقد حرم المعاصرون منه.

كان التأليف عند القدماء يتطلب جهداً متواصلاً وتحصيلاً علمياً مستمراً وعمراً مديداً ومقدرة مادية، وقد جعل الجاحظ المقدرة وطول العمر عاملاً خامساً ضرورياً للتأليف، ولايمكن فصل ذلك عن ظروف الجاحظ الخاصة، لأنه ألّف أكبر كتبه الحيوان والبيان والتبيين إلى جانب كتاب البلدان في المرحلة الاخيرة من حياته، بعد أن تقدمت به السن واشتد به الفالج[٣]، فلا عجب ان يخشى الجاحظ المنية وان يدرك ضرورة العمر المديد لاكمال أعمال أدبية ضخمة كالحيوان "وكان المستشرق الألماني فيشر يعتزم تأليف معجم تاريخي للالفاظ العربية، وهو عمل مضن يستدعي عمراً طويلاً... وقطع غير قليل، ثم توفي قبل ان يحقق غايته"[٤]، وكادت ان تختفي تلك الأعمال الضخمة والغايات الطموحة عن مؤلفات عصرنا، لأن معظم مؤلفينا يفتقرون إلى القدرة العلمية، ويلهثون وراء الشهرة، وان جانبت الحق.

---

[١] المصدر نفسه ٧٦/١٦.

[٢] الحيوان ١٠١/١.

[٣] ينظر: الجاحظ، حياته وآثاره، ص٣٨٧-٣٨٩.

[٤] منهج البحث الأدبي، ص١١١.

المبحث الثاني: طريقة التأليف

تحدث الجاحظ عن طريقة تأليف الكتب وما يعرض فيها من سقطات، ومراجعتها بعد تأليفها أشار الجاحظ وروى عن قراء عصره ان الكتب حسب حجمها نوعان: وصف الاولى بأنها عظيمة الحجم كثيرة الورق والعدد، ووصفها مرة أخرى بأنها طويلة واطلق على الثانية "صغار الكتب"[١]، وقد أدرك أن لكل منها طريقة في التأليف تناسبها، يطلق عليها الباحثون المحدثون "خطة"، وكان الجاحظ يسميها "سيرة"، وان الاوائل قد سارت في صغار كتبها هذه السيرة التي اتبعها الجاحظ في تأليف كتابه الحيوان، وهي ان يفصل ابوابه، ويوشحها بنوادر من ضروب الشعر والاحاديث ليخرج القارئ من باب إلى باب[٢]، فالخطة لديه تشمل امرين: الاول تقسيم الكتاب إلى ابواب وفصول، والثاني توزيع المادة على تلك الابواب والفصول "وقد زودنا المؤلفون العرب القدامى نتيجة لانصرافهم إلى التأليف وثمرة لتجاربهم الطويلة فيه –بهذه الكلمات... فصل، باب، جزء"[٣]، وقد يختلف الجاحظ عنهم في استعماله لتلك الكلمات، ونبتعد عنه فيما نبتغيه منها، فالمؤلف في عصرنا يقسم كتابه "إلى أجزاء... ويقسم كل جزء من الاجزاء بمقتضى المادة المتكونة لديه والوحدات الصغرى التي يمكن ان تنطوي إلى ابواب والابواب إلى فصول"[٤]. إلا أن الابواب والفصول في كتاب الحيوان تتداخل، فالكتاب قسم إلى اجزاء تعالج احتجاجات صحيحة يروجها المؤلف لتكثر الخواطر وتشحذ العقول[٥]، وهي أبواب الكتاب الاساسية كباب الحمام في الجزء الثالث، وقبلها واثناءها يذكر الجاحظ بطالات وعلاً ظريفة واحتجاجات غريبة[٦] وهي التي نطلق عليها "استطرادات"، وقد أطلق الجاحظ عليها "أبواباً"، فقال عنها: "سنذكر من هذا الشكل علاً، ونورد عليك من احتجاجات الأغبياء حججاً، فإن كنت ممن يستعمل الملالة، وتعجل اليه السآمة، كان هذا الباب تنشيطاً لقلبك، وجماماً لقوتك ولنبتدئ النظر في باب الحمام، وقد ذهب الكلال، وحدث النشاط"[٧] واستمر

---

[١] ينظر: الحيوان ٥٣/١، ٧/٣.

[٢] ينظر: المصدر نفسه، ص ٧/٣.

[٣] منهج البحث الادبي، ص٧٨.

[٤] المصدر نفسه، ص ٧٨.

[٥] ينظر: الحيوان ٥/٣.

[٦] ينظر: الحيوان ٥/٣.

[٧] ينظر: المصدر نفسه ٦/٣.

في بداية الجزء الثالث يذكر الاشعار المختارة والاحاديث المتنوعة والاحتجاجات العديدة والعادات والنوادر إلى ان بدأ بباب الحمام بعد مائة واربع واربعين صفحة، فأين الفصول التي طلب من القارئ ان يتفكر فيها[١]، يبدو ان الجاحظ يفكر في نوعين من الأبواب، الاولى يذكرها دون ان يضيف اليها وصفاً وهي أبواب الكتاب الرئيسة، ويصف الثانية بأنها قصيرة[٢]، ومرة يطلق عليها "أشكالاً" أو "أبواباً مفصلة"، وهي مانطلق عليها في عصرنا "فصولاً"، وكان الجاحظ يخصصها للاستطرادات، كقوله عنها: "إني أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه، بوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث، ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب، ومن شكل إلى شكل"[٣]، وهناك عوامل ثلاثة جعلت الجاحظ يكثر من الاستطرادات أثناء أبواب الحيوان، يعبر العامل الاول عن عناية الجاحظ بالقارئ وحرصه على استنشاط قلبه وجمام قوته[٤]، ولايخلو مضمون الكتاب ان يكون جداً أو مزاحاً، وكلاهما ان طال أو كثر يورث الملالة، فقد رأى الجاحظ أن "الاسماع تمل الاصوات المطربة والاغاني الحسنة والاوتار الفصيحة، إذا طال ذلك عليها، وما ذلك الا في طريق الراحة، التي إذا طالت أورثت الغفلة"[٥]، واذا حمل على النفس من الحق مايملها صارت بحاجة إلى بعض الباطل لتجم به[٦]. والعامل الثاني يعود إلى استظراف الجاحظ أمرين استظرافاً شديداً هما استماع حديث الاعراب، واحتجاج متنازعين في الكلام وهما لايحسنان منه، ولذلك اطلق على تلك الاستطرادات بطالات وعلاً ظريفة واحتجاجات غريبة[٧]، والعامل الثالث يتعلق بكتاب الحيوان من حيث طوله وطبيعة مادته الخاصة بحياة الحيوان القريبة من العلم، فلو "حملنا جميع من يتكلف قراءة هذا الكتاب على مر الحق وصعوبة الجد، وثقل المئونة وحلية الوقار، لم يصبر عليه مع طوله إلا من تجرد للعلم وفهم معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر قلبه من عزة، ونال سروره على حسب

---

[١] ينظر: المصدر نفسه ٣٧/١.

[٢] ينظر: المصدر نفسه ١٩٩/٥.

[٣] المصدر نفسه ٧/٣.

[٤] المصدر نفسه ٥/٣-٦.

[٥] المصدر نفسه ٧/٣.

[٦] ينظر: الحيوان ٧/٣.

[٧] ينظر: المصدر نفسه ٥/٣-٦.

مايورث الطول من الكد والكثرة من السآمة"[١]، وقبل هذا وصفه بأنه "كتاب موعظة وتعريف وتفقه وتنبيه"[٢]، والموعظة التي فيه هي استدلاله على قدرة الخالق في إبداع مخلوقاته ذات الاسرار العجيبة والعادات الغريبة، والتي أحسنت "تعلم مايمتنع على الانسان وان تعلم"[٣]، أما التعريف والتفقه اللذان فيه فيدلان على الاعلام وانشاد الضالة والفهم والمباحثة في العلم[٤]، التي شهد لها مادة علمية عن حياة الحيوان واطوارها وخصائصها التي تتطلب من القارئ ان يتجرد للعلم ليفهمها. أما التنبيه الذي فيه فإنه يدل على رفع الخمول[٥]، عن القارئ بهذه الاستطرادات التي تتردد فيها العلل الظريفة والاحتجاجات الغريبة تنشيطاً لقلب القارئ وجماماً لقوته.

ولكن كيف استطاع الجاحظ ان يجمع هذه الموضوعات العديدة والمتنوعة والمختلفة في طبيعتها وأحياناً المتناقضة في كتاب طويل.

اتبع الجاحظ خطة في التأليف تعتمد على مقاييس جمالية "فإذا طال الكلام وكثرت فنونه، وصار الباب القصير من القول في غماره مستهلكاً، وفي حرمته غرقاً، فلا بأس ان تكون تلك الفقر مجموعات، وتلك المقطعات موصولات، وتلك الاطراف مستقصيات مع الباقي من ذكرنا فيه، ليكون الباب مجتمعاً في مكان واحد، فبالاجتماع تجتمع القوة، ومن الابعاض يلتئم الكل، وبالنظام تظهر المحاسن"[٦]، والقوة التي يطمح الجاحظ إليها هي تحقيق الجمال، فالجميل قوي، لتماسك أعضائه وانسجامها من حيث تآلفها، بينما يكون القبيح ضعيفاً، لتنافر أعضائه، واجتماع الأجزاء والتئام الابعاض اللذين دعا الجاحظ اليهما، لايعنيان ان نضع اجزاء إلى جنب اجزاء، وتركب ابعاضاً مع ابعاض، وانما نراعي مع التركيب نسباً تؤلف بين تلك الأجزاء، ليظهر الكل متآلفاً ومنسجماً مع أجزائه بحيث لاتفقد الاجزاء شخصيتها فتفنى في الكل، ولاتتجاوز حدودها فتطغى على الكل أو على حدود الاجزاء الاخرى، وهذا هو النظام الذي يظهر المحاسن. ويجدر بنا ان نرجع إلى

---

[١] المصدر نفسه ٣٨/١.

[٢] المصدر نفسه ٣٧/١.

[٣] المصدر نفسه والصفحة.

[٤] ينظر: مختار الصحاح "عرف، فقه".

[٥] ينظر: المصدر نفسه "نبه".

[٦] الحيوان ١٩٩/٥.

آراء الجاحظ عن هذه المقاييس الجمالية وملخصها: ان الجاحظ يعطي للذهن حكماً قاطعاً على الجمال، ويتخذ من التمام المحدد بإطار لايتجاوز مقدار الاعتدال مقياساً له، واي خروج عن مقدار الاعتدال من زيادة أو نقصان يفسد ميزة جمالية هامة بين أجزائه التي هي الوحدة، فتنسجم الاجزاء وتتآلف مع الكل[١]، أي انه يتخذ من الوحدة في الكثرة مقياساً للحكم على الجمال، ويبدو هذا قريباً من مبدأ "النسق والمقدار" الذي اتخذه ارسطو مقياساً لتحديد الجمال[٢]، وقد نظر إلى جمال الكائن الحي من خلال اجزائه والنظام الذي يوجد بين هذه الأجزاء على وفق شروط حددها، فقال: "الجمال يقوم على العظم والنظام، ولهذا فإن الكائن العضوي الحي إذا كان صغيراً جداً لايمكن ان يكون جميلاً لأن إدراكنا يصبح غامضاً، وكأنه يقع في برهة لايمكن ادراكها، كذلك ان كان عظيماً جداً... إذ في هذه الحالة لايمكن ان يحيط به النظر، بل تند الوحدة والمجموع عن نظر الناظر"[٣]، مما يعني ان الجاحظ ينظر إلى تأليف الكتاب المكون من عدة أجزاء على انه كائن حي، يحكم على جودة تأليفه واتقان خطته من خلال ترتيب أبوابه وفصوله ومراعاة النظام بين أجزائه من خلال توحيد ماتفرق منه، وتنسيق مادته وافكاره، بحيث تكون الفقر مجموعات والمقطعات موصولات، وتلك الاطراف مستقصيات مع الباقي.

لقد أدرك الجاحظ ان المؤلفات الكبيرة كالحيوان يطول الكلام فيها، وتكثر فنونها، حتى يصير الباب القصير من القول في عمارها مستهلكاً، وفي حرمته غرقاً، أي يصير الباب القصير من القول في الكلام الطويل والكثير الفنون فانياً وفي معظمه غرقاً، مما يعني ان الاجزاء لقصرها تفقد وجودها ولاتحافظ على كيانها، لان الكل الذي يضمها طويل تجاوز حدوده وطغى عليها فأهلكها، مما يدل على ان الوحدة من الكثرة ماتت. فهل استطاع الجاحظ ان يحافظ على حياتها وحيويتها في كتابه الحيوان؟ يقول الجاحظ: "لست ادعي في شيء من هذه الاشكال الاحاطة به والجمع لكل شيء فيه، ومن عجز عن نظم الكثير، وعن وضعه في مواضعه، كان عن بلوغ آخره، وعن استخراج كل شيء أعجز"[٤] وتدل عبارات: الاحاطة، وجمع الأشياء، ونظم الكثير، ووضعه في مواضعه، وبلوغ آخره

---

[١] ينظر: رسائل الجاحظ، كتاب القيان ١٦٢/٢، التربيع والتدوير ٥٨/٣، ٩٠-٩١.

[٢] ينظر: على الجمال، ص٤١.

[٣] فن الشعر، ص٢٣-٢٤.

[٤] الحيوان ١٩٩/٥.

على أمور ثلاثة: تمسك الجاحظ بمقياس الوحدة في الكثرة وإدراكه لصعوبة تحقيقها وعجزه عن بلوغها. وقد قالها بتواضع: انه لم يدع الاحاطة به في هذه الاشكال وتكررت كلمة "العجز" في كلامه مرتين، ولو تدبرنا عباراته، وتصفحنا اسباب عجزه، واستطلعنا رأيه، لوجدناه يعتقد سببين: الأول أنه كان يعاني من كلمة "كل شيء" فوجد صعوبة جمعها في الكتاب واستخراجها لأنها كثيرة وصغيرة ومختلفة، واذا احصيناها كما أشار اليها لوجدناها تضم احتجاجات صحيحة، وبطالات وعلل طريفة، واحتجاجات غريبة ونوادر، وأحاديث إعراب، واحتجاجات متنازعين في الكلام، واحتجاجات أغبياء، وجداً وهزلاً، وضحكاً ومزاحاً[١]، فضلاً عن الموضوعات الاساسية للكتاب عن الحيوان، مما يصعب على المؤلف وان كان بارعاً وقديراً ان يلمها ويجمع أشتاتها ويوحد بينها، وقد ذكرنا قبل قليل كلام الجاحظ الذي أشار فيه إلى ان الباب القصير من القول يستهلك في الكلام الطويل وكثرته، وقبل هذا ذكرنا ان الابواب القصيرة عند الجاحظ تعني الفصول المخصصة للاستطرادات، والتي تحوي كل شيء مما أحصيناه قبل قليل، مما يعني ان الجاحظ كان يعتقد ان هذه الاستطرادات هي التي تفلت من الوحدة، وهو اعتقاد مصيب مايزال القراء يتفقون معه، فهذه الاستطرادات لكثرتها وطولها وتنوع مادتها تشغل فكر القارئ عما قبلها ومابعدها، وقد ذكرنا سابقاً انه استطرد في بداية الجزء الثالث فذكر أشعاراً مختارة وأحاديث متنوعة واحتجاجات عديدة وعادات ونوادر إلى ان بدأ بباب الحمام بعد مائة واربع واربعين صفحة، حتى أوشكت ان تكون كتيب داخل كتاب.

السبب الثاني الذي يعتقده الجاحظ علمي يخص كتاب الحيوان من حيث طبيعة مادته ومنهجه، فقد ذكر الجاحظ –بعد النص السابق الذي أشار فيه إلى صعوبة الاحاطة بالكتاب والمحافظة على وحدته– ان "المتح[٢] أهون من الاستنباط والحصر أيسر من الحرث"[٣]، فمدلولات هذين التشبيهين تدل على ان الجاحظ كان يعتقد انه قام في كتاب الحيوان بعمل جديد، سار فيه بطريق غير مسلوك، وانجز بحثاً فريداً لم يسبقه اليه احد، فالمائح يجذب الماء من بئر حفره له آخرون، ويقابله الباحث الذي يكتب في موضوع

---

[١] ينظر: الحيوان ٣٧/١، ٥/٣-٦.

[٢] كذا ورد في كلام الجاحظ، والأصل "الميح" وهو النزول إلى البئر وملء الدلو منها، وذلك إذ قل ماؤها. وهناك "الامتياح" مختار الصحاح "ميح".

[٣] الحيوان ١١٩/٥، الاستنباط: استخراج الماء بحفر الارض وبحثها.

مطروق وبمنهج معروف فالصعوبات التي تواجهه قليلة ومجالات الابداع امامه محدودة. أما المستنبط فإنه يستخرج الماء من ارض حفرها بنفسه وبحثها لغيره، ويقابله الباحث الذي يطرق موضوعاً لم يسبقه اليه غيره ويستخدم منهجاً يتميز به عمن سبقه، ويتوصل إلى نتائج تكون ملكاً له ولايستطيع ادعاءها من يأتي بعده، والاقدام على مشاريع من هذا القبيل يتطلب من الباحث ان يبذل جهداً ويتمتع بموهبة، ويبدي شجاعة –وقد سبق الجاحظ مؤلفون كتبوا عن الحيوان[١]، الا ان الطابع العلمي أو اللغوي غلب على مؤلفاتهم، وقد تفرد الجاحظ عنهم بأن مزج العلم بالادب والجد بالهزل والجمع الوفير مع الاستقصاء.

المبحث الثالث: القراء والتنقيح

عد الجاحظ الكتاب نعمة يصيبها الرجل وفتنته به تفوق فتنته بجميع نعمه[٢] والفتنة تدل على الامتحان والاختبار[٣]، ويتخذ هذا الامتحان والاختبار أشكالاً عدة، كأن يحسده الناس على تلك النعمة، أو يشقى بها بعد زوالها أو يبطر بها، فلا يحافظ عليها ولايحسن التصرف بها، وتأتي فتنة الكتاب من مصدرين هما: مؤلفه وقارئه ويفتن المؤلف بكتابه عند ابتدائه[٤] لعاملين الاول نفسي يدفعه اليه الاعجاب بعمله، مما يخفي عليه عيوبه ونواقصه، ويعرض هذا عادة لقليلي الخبرة والعاطفيين شديدي الحساسية، لأن (العاقل ان لم يكن بالمتتبع، فكثيراً مايعتريه من ولده، ان يحسن في عينه منه المقبح في عين غيره، فليعلم ان لفظة أقرب نسباً منه من ابنه"[٥]، وغير المتتبع هو الذي لم يحكم ويتقن عمله، وذلك لقلة خبرته مما يجعله عرضة للتأثيرات النفسية التي تدل عليها لفظة "يعتريه" وتكون العاطفة مقياسه في الحكم على المحاسن، وتروى الحكايات الشعبية انه طلب يوماً من الغراب ان يختار أجمل طير رآه، فطاف أياماً، وبحث كثيراً وشاهد أشكالاً كثيرة من الطيور، لم تقع في نفسه فأتى عشه، وحمل فرخاً صغيراً أسوداً غريباً قائلاً: لم تر عيني أجمل من هذا قط.

العامل الثاني لفتنة المؤلف بكتابه تتفاعل فيه القوى النفسية مع المدارك العقلية، حيث يعتري صاحب القلم (مايعتري المؤدب عند ضربه وعقابه فما أكثر من يعزم على

---

[١] ينظر: الفهرست، الصفحات ٧٦، ٧٧، ٧٩.

[٢] ينظر: الحيوان ٨٩/١.

[٣] ينظر: مختار الصحاح "فتن".

[٤] ينظر: الحيوان ٨٨/١.

[٥] المصدر نفسه ٨٩/١.

خمسة أسواط فيضرب مائة لأنه ابتدأ الضرب وهو ساكن الطباع، فأراه السكون ان الصواب في الاقلال، فلما ضرب تحرك دمه، فأشاع فيه الحرارة فزاد في غضبه، فأراه الغضب ان الرأي في الاكثار، وكذلك صاحب القلم، فما أكثر من يبتدئ الكتاب وهو يريد مقدار سطرين فيكتب عشرة"[١]، وعناصر المقارنة بين مايعتري المؤدب عند ضربه وعقابه وبين المؤلف عند تأليفه كتاباً بعيدة، فالأول ينتابه غضب قد يؤثر على قواه العقلية فيعطلها مما يجعله عبداً لتوجيهات الدم وحركته، فيخضع لنزوات شهوانية، والثاني تدفعه الرغبة في إخراج أفكاره من القوة إلى الفعل، ولايستطيع تحقيقها إذا لم يرتب افكاره وينظم معلوماته، ويتبع خطة في التعبير عنها، ولو خضع المؤلف لحركة الدم وحرارته لاضطرب كلامه واحتلت افكاره. والشيء الذي يحدث في كلا الحالتين، ولعل الجاحظ قصد الوصول اليه هو "الإكثار" على غير إرادة من المؤدب والمؤلف، والدافع اليه عند المؤدب هو الغضب الذي أشار الجاحظ اليه. أما المؤلف فتدفعه الرغبة في الكتابة والاكثار منها سببه تظافر قوتين هما العقلية والبيانية، يكون المؤلف فيها قادراً على استيعاب موضوعه ومحيطاً بحدوده وعالماً بدقائقه ومتمكناً في التعبير عنه بلغة سليمة واسلوب بليغ وعبارات غير قاصرة.

واذا كانت هذه الكثرة التي تعود إلى القدرة حسنة، فإنها تعود احياناً على المؤلف بسيئة، واذا غفل المؤلف عنها، فإن القراء "يقفون من جميع الكتب على الكلمة الضعيفة واللفظة السخيفة، وعلى موضع من التأليف قد عرض له شيء من استكراه، أو ناله بعض اضطراب"[٢]، وقد اطلق الجاحظ على هذه الاخطاء "سقطات"[٣]، وهي عبارة عن اخطاء أو عثرات[٤]، وأشكالها عديدة ومتنوعة، فهي أما ان تكون لغوية أو اسلوبية كالألفاظ السخيفة والكلمات الضعيفة، أو ان تكون منهجية كالمواقع المستكرهة أو المضطربة من التأليف، كأن يقحم المؤلف فقرة أو يذكر استطراداً مقحماً، أو تكون الخطة غير متناسقة في أبوابها وفصولها. وأسباب تلك السقطات يعود بعضها إلى الوهم وفلتات الضجر[٥]، أي

---

[١] الحيوان ١/٨٨-٨٩.

[٢] الحيوان ٧/٦.

[٣] المصدر نفسه.

[٤] ينظر: مختار الصحاح "سقط".

[٥] ينظر: الحيوان ٧/٦.

العوامل النفسية والعقلية، ويحدث هذا عادة في المؤلفات المضنية وفي الفترات غير المستقرة من حياة المؤلفين، وقد ذكرنا سابقاً ان الجاحظ الف أكبر كتبه الحيوان والبيان والتبيين في المرحلة الاخيرة من حياته بعد ان تقدمت به السن، واشتد به الفالج، فلا عجب ان يحتاط من سقطات الوهم وفلتات الضجر. ويخرج السبب الآخر لتلك الاخطاء عن إرادة المؤلف، ويقع على كاهل النساخ، ويحدث هنا في التصحيف واسقاط الكلمات[١]، وهي ظاهرة عانت منها المؤلفات القديمة، فوضع أبو احمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري "المتوفى سنة ٣٨٢هـ" كتاباً في "شرح مايقع فيه التصحيف والتحريف"[٢] وقد يخطئ النساخ عن سهو أو يبتغون من ورائها الايضاح[٣].

يشكل القراء مصدراً ثانياً لفتنة الكتاب، فهم قراؤه ونقاده ووسائل دعايته فأما ان يعجبوا به أو يذموه، ويختلفون باختلاف ثقافتهم وعصورهم ومواقفهم من صاحبه والقراء عند الجاحظ نوعان، اختلف موقفه منهم باختلاف دوافعهم: النوع الاول من ينظر في الكتب للمطالعة والمدارسة[٤]، والجاحظ كما يبدو يبجلهم، والنوع الثاني يقرؤها ليقف على عيوبها وسقطاتها ويعنينا هنا الحديث عنهم، لأنهم نقاد الكتب الذين يقومونها إذا تجردت نياتهم عن الهوى، ويبدو الجاحظ متذمراً بهم، وهم فريقان لم تصف نوازعهما: اولهما يتكلفون قراءة الكتب ومدارسه العلم، ليقفوا من جميعها على الكلمات الضعيفة والالفاظ السخيفة والمواضع المستكرهة أو المضطربة[٥] فهم قراء متعافون لايبتغون العلم حباً لفائدته وانما يبحثون عن السقطات، حتى ولو كانت حسب عبارة الجاحظ "شيئاً من استكراه أو... بعض اضطراب"[٦]، والنوع الثاني معارض يقف "على معنى لعله لو تدبره بعقل غير مفسد ونظر غير مدخول، وتصفحه وهو محترس عوارض الجسد، ومن عادة التسرع، ومن أخلاق من عسى ان يتسع في القول بمقدار ضيق صدره، ويرسل لسانه ارسال الجاهل

---

[١] ينظر: المصدر نفسه ٧٩/١، ٦/٧.

[٢] وان لم يقصره على التصحيف والتحريف، الا انه اهتم بهما وخصص لهما كلاماً كثيراً وقد حققه عبد العزيز أحمد.

[٣] ينظر: اصول نقد النصوص ونشر الكتب، ص٧٥.

[٤] ينظر: الحيوان ٦١/١.

[٥] ينظر: المصدر نفسه ٦/٧.

[٦] الحيوان ٦/٧.

بكنه مايكون منه"[١]. والنص يحدد أسباب تلك المعارضة، فالعقل الفاسد والنظر المدخول يوصف بها عادة النقاد والقراء غير الموضوعيين في أحكامهم، الذين أفسدت عقولهم أهواءهم الشخصية وهؤلاء قراء خصوم، تنبه الجاحظ لهم، وحذر المؤلف عند تأليفه كتابه "الا يكتبه الاعلى ان الناس كلهم له اعداء"[٢]، والسبب الثاني للمعارضة هو عدم احتراس القارئ من عوارض الجسد، أي شهواته التي تؤثر على القوى العقلية فتخدع القارئ أو توهمه بوجود أخطاء، لو تصفحها وهو محترس من عوارض الجسد لعرف حقيقتها، فضلاً عن أسباب أخرى يمكن ان نسميها "أخلاقية" منها التسرع في إصدار الاحكام، وضيق الصدر في تقبل الآراء وهفوات اللسان في القول.

لم يسلم الجاحظ نفسه من انتقادات قرائه، وخاصة في تقويمهم لكتابة الحيوان ومآخذهم عليه تتركز في ثلاث فقط: الاولى منهجية عاتبهم الجاحظ عليها بقوله: "أراك قد عبته قبل ان تقف على حدوده، وتتفكر في فصوله، وتعتبر آخره بأوله، ومصادره بموارده"[٣]، ويفهم من هذا انهم رأوا في خطته افتقاراً إلى الوحدة، والترتيب بين الفصول، والارتباط بين أجزائه، وقد تحدثنا عن هذا الموضوع سابقاً.

والثانية معنوية عاتبهم الجاحظ عليها بقوله: "وقد غلطك فيه بعض مارأيت في أثنائه من مزج لم يعرف معناه ومن بطالة لم تطلع على غورها، ويؤخذ. والنقطة الثالثة أُخذت على حجم الكتاب، فقد حوى كل شيء، سواء أكان من صلب الموضوع يحتاج اليه أم استطراد عن الموضوع لايحتاج اليه في رأي بعض القراء حتى صار –في رأي الجاحظ– "ما لايحتاج اليه، يحتاج اليه، وذلك مثل كتابنا هذا"[٤] وقد أحس الجاحظ ان القارئ "لم يصبر عليه مع طوله الا من تجرد للعلم وفهم معناه"[٥].

كيف يستطيع المؤلف ان يتقي عثراته، ويتجنب سقطاته، ويسلم من سوء تحفظ معارضيه ونقاده؟ عالج الجاحظ ذلك بأمرين: الاول وقائي احترازي، والامر الاول الذي

---

[١] الحيوان ٦/٧.

[٢] المصدر نفسه ٨٨/١.

[٣] المصدر نفسه ٣٧/١.

[٤] الحيوان ٣٨/١.

[٥] المصدر نفسه.

ينبغي للمؤلف ان يحترز منه هو نفسه وخاصة في المرحلة المبكرة من التأليف، وهي الابتداء بالكتابة "فإن لابتداء الكتاب فتنة وعجباً"[١].

وقد أخذ الصولي هذه ولم ينسبها للجاحظ، وانما ذكرها بعد عبارة: "قال آخرون" وعممها على الشعر والنثر[٢]، وقد تحدثنا عن هذه الفتنة سابقاً، وما يهمنا منها الان انها مدعاة للغلط، ان "هذا الكتاب –ارشدك الله– وان حسن في عيني وحلا في صدري، فلست آمن من ان يعتريني فيه من الغلط مايعتري الاب في ابنه، والشاعر في قريضه"[٣]، والغلط الذي يخشى على المؤلف فيه هو "الفتنة والعجب"، لأنهما يبديان له المحاسن، ويستران عنه المعايب، وأبعد من هذا انهما يوهمانه بوجود حسن في القبيح، ولما كان الكتاب في هذه المرحلة قوة لم تتحقق بعد، فإن المؤلف إذا وقع تحت تأثير الفتنة والعجب يبقى غافلاً عن اخطائه، وسينبه اليها بعد نشر الكتاب ووصوله إلى أيدي القراء، وهنا يأتي الاحتراز الثاني، ينبغي فيه "لمن كتب كتاباً الا يكتبه الا على ان الناس كلهم له اعداء، وكلهم عالم بالامور، وكلهم متفرغ له"[٤]، والعداوة بين المؤلف وقرائه في هذا الموضع لم تكن عن سوء ظن، وانما هي مناعة منهجية املتها تجاربه العديدة في التأليف، ولأنه كان يعيش في وسط يتجه الناس فيه إلى الثقافة، ومنهم علماء متخصصون ومتفرغون للعلم لكن الجاحظ يقول انهم متفرغون للمؤلف، مما يشير إلى منافسة بينهم.

يتجه الجاحظ بعد تلك المحاذير النفسية والاجتماعية إلى المسائل الفكرية والمنهجية، يوصي المؤلف فيها الا "يرضى بذلك حتى يدع كتابه عقلاً، ولا يرضى بالرأي الفطير"[٥]، فإذا أغفل الإنسان الشيء فقد "تركه على ذكر"[٦] مما يعني الترك دون اهمال أو نسيان، وانما هو ترك لغايةن و"الفطير ضد الخمير وهو العجين الذي لم يختمر، وكل

---

[١] المصدر نفسه ٨٨/١.

[٢] ينظر: أدب الكتاب ١٥٧/٢.

[٣] رسائل الجاحظ، في كتاب الفتيا ٣١٧/١ واقتران الشاعر بالاب هنا في فتنته بشعره، يدل على ان الصولي كان مطلعاً على هذه الفكرة في موضعيها من الحيوان وهذه الرسالة.

[٤] الحيوان ٨٨/١، وقد أخذ الصولي هذا النص بتصرف في أدب الكتاب ١٥٧/٢، ولم ينسبه كعادته للجاحظ، وانما ذكره بعد كلام قال انه لبعض الكتاب.

[٥] المصدر نفسه والصفحة.

[٦] مختار الصحاح "غفل، فطر".

شيء أعجلته عن إدراكه فهو فطير"[١] وملخص وصية الجاحظ على وفق هذين المدلولين، انه يوصي المؤلف بان يترك كتابه ولكن على ذكر له أي دون اهماله ونسيان مافيه من نقص وينهاه عن الاكتفاء بالامور غير الناضجة والاقتناع بها دون اختمارها، والنص بهذه الحدود لايعطينا فكرة شافية، فهل يترك المؤلف اراءه تختمر في ذهنه قبل كتابتها لم انه يكتبها ويتركها تختمر ليعود اليها لينقحها ويهذبها ذكرنا قبل قليل ان الصولي أخذ هذه الافكار وتصرف بها دون ان ينسبها للجاحظ واذا رجعنا اليه وجدناه يوضح الفكرة كما يلي: "ينبغي له ان يعمل النسخ ويخمرها ويقبل عفو القريحة ولايستكرهها"[٢]، والعفو يعني الميسور الذي يفضل عن الشيء[٣] والقريحة تجود في أوقات وتعسر في أخرى. فعلى المؤلف ان يقبل ماتجود به في يسيرها، وهي مرحلة الكتابة، فيعمل نسخاً، أي يؤلف كتاباً، والمرحلة الثانية هي "الاختمار" وذلك بأن يحتفظ المؤلف بالنسخة الاصلية التي تعد فطيراً، ولايخرجها لاكليها "القراء" الا بعد اختمارها، أي بعد تنقيحها.

لايستطيع المؤلف بالامر الاحترازي ان يتقي جميع عثراته أو يسلم من هفواته فعليه ان ينقح كتابه بعد وضعه، وقد حرص الجاحظ على هذه المهمة ووصفها بألفاظ دقيقة في الدلالة عليها، فقد نصح مؤلف الكتاب الا "يهذبه جداً وينقحه ويصفيه، ويروقه"[٤]، وقد استقى الجاحظ هذه الالفاظ الاربعة من مصدرين: احدهما طبيعي والآخر ذوقي، والمصدر الطبيعي هو الماء، فإذا راق الماء فقد صفى، وصفاؤه يعني خلوه من الكدر[٥]، ونعت الكتاب بأوصاف الماء ذو مغزى لطيف، فكلاهما عماد الحياة، فالماء غذاء الجسم، والعلم الذي يحمله الكتاب غذاء العقل، وجدير بنا الانفراط بحياتنا فنشرب كدراً، وكم تغنى الشعراء بالماء الزلال والماء العذب، ولعل الجاحظ كان يدرك أهمية تصفية الماء وتنقيح الكتاب للشارب والقارئ. أما المصدر الذوقي فتدل لفظتا "التهذيب والتنقيح" وقد ارتبطت الاولى بالأخلاق والثانية بالفن وهو الشعر عند العرب، والالفاظ السابقة انحسرت كلها أثناء التطور الحضاري في دلالتها على المضمون الثقافي الا

---

[١] المصدر نفسه.

[٢] أدب الكتاب ١٥٧/٢.

[٣] ينظر: مختار الصحاح "عفا".

[٤] الحيوان ٩٠/١.

[٥] ينظر: مختار الصحاح "روق، صفا".

"التنقيح" الذي اصبح مصطلحاً ثقافياً خاصاً بإعادة النظر في الكتب بعد تأليفها، ويبدو ان الجاحظ اخذ هذا المصطلح من الاصمعي، فقد روى الجاحظ عن الاصمعي قوله: "خير الشعر الحولي المنقح"[١] وقد أطلقه كل منهما على مجال يتفق ونشاطه، فالاصمعي راو أكثر منه مؤلفاً، بينما اقتصر نشاط الجاحظ على التأليف، فأطلقه الاصمعي على الشعر، والجاحظ على الكتب كما ان المرحلة الحضارية بين الاصمعي "المتوفى سنة ٢١٦هـ" والجاحظ "المتوفى سنة ٢٥٥هـ" لم تكن متباعدة الا انها توحي ان الثقافة قد قطعت شوطاً بين جيليهما، فقد انشغل جيل الاصمعي برواية الشعر وجمعه وتدوينه، بينما اتجه جيل الجاحظ إلى دراسته ونقده وشرحه وتحليله، وان تنبه الجاحظ إلى الحذر من مطاعن القراء واهتمامه بالتنقيح يدل على ان التأليف قد قطع شوطاً في التطور، فكتاب "فحولة الشعراء" للاصمعي لم يدون في زمنه، وانما نشر رواية عن طريق تلميذه أبي حاتم السجستاني "المتوفى سنة ٢٥٠هـ"، بينما يوضع الكتاب في عصر الجاحظ على مراحل، الاولى مرحلة الكتابة يراعي المؤلف فيها الجوانب الاحترازية التي تحدثنا عنها سابقاً، فيعمل منها نسخة يحتفظ بها المؤلف، حتى "إذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة وتراجعت الاخلاط، وعادت النفس واقره، اعاد النظر فيه"[٢].

وإذا قرنا هذا النص بنص آخر قد عرضناه سابقاً، تبين لنا ان الجاحظ يحاول فيهما ان يدرس سيكولوجية المؤلف اثناء تأليف الكتاب، ولعله يرى ان المؤلف يمر بحالة نفسية غير طبيعية، ففي نص له يشبه المؤلف اثناء التأليف بالمؤدب عند ضربه وعقابه فالمؤدب يبدأ الضرب وهو ساكن الطباع، فلما يضرب يتحرك دمه، فيشيع فيه الحرارة، مما يؤدي إلى زيادة غضبه، فيكثر في الضرب، كذلك صاحب القلم[٣]، وقد ناقشنا هذه الفكرة سابقاً، وما يتعلق بهذا الموضع منها نقول كلاهما يقع في أخطاء اثناء مروره بهذه الحالة، فالمؤدب يجور على الصبي، فيكثر في ضربه إلى حد يتعارض ومبادئ الاخلاق واصول التربية، والمؤلف يتأثر بمزاجه النفسي اكثر من مداركه الفعلية فتضعف قدرته النقدية في تمييز الأخطاء، مما يجعل الكلمات الضعيفة والالفاظ السخيفة ومواقع الاستكراه

---

[١] البيان والتبيين ٢٠٤/١.

[٢] الحيوان ٨٨/١. وقد نقل الصولي هذا النص بتصرف ولم ينسبه للجاحظ، أدب الكتاب ١٥٧/٢.

[٣] ينظر: الحيوان ٨٨/١-٨٩.

والاضطراب[١]، التي حذر الجاحظ منها تفلت من سيطرته وبعد انتهاء المؤلف من وضع كتابه تعود نفسه إلى حالتها الطبيعية، فتمكن الطبيعة التي تحركت، وتهدأ الحركة التي ثارت، ونريد ان نقف عند عبارتي "تراجعت الاخلاط، وعادت النفس وافرة" فإذا قلنا: "اختلط فلان أي فسد عقله، والتخليط في الامر الافساد فيه"[٢]، ولعل الجاحظ يقصد بذلك ان الاخطاء التي تعرض في الكتاب نتيجة للحالة النفسية للمؤلف انما هي مفاسد، لأنها ناتجة عن فساد العقل لتأثره بحالة نفسية وكأنما النفس قد أفسدت العقل، ثم هي مفاسد في الكتاب لضعف كلماتها وسخافة الفاظها واستكراه مواضعها أو اضطرابها، ولابد من اصلاحها عندما تعود النفس وافرة "والموفور الشيء التام"[٣]، وكأنما النفس أثناء التأليف قد نقصت قواها بسبب تلك الحالة النفسية التي مرت بها، واستفراغ مجهودها في ابداع عمل فكري هو "الكتاب".

لقد اختلفت مراحل تأليف الكتاب وتنقيحه ونشره باختلاف العصور، ففي عصر الجاحظ تعمل نسخة من الكتاب بعد مرحلة الكتابة، يحتفظ بها المؤلف ولايخرجها للقراء، تختمر عنده ليعيد فيها النظر، أي ينقحها، ثم ينشرها، وقد تطورت هذه المراحل في عصر الصولي "المتوفى سنة ٣٣٦هـ"، فقد نقل عن بعض الكتاب وصفه "النسخ فقال: ينبغي ان يصحبها الفكر إلى استقرارها، ثم تستبرأ بإعادة النظر فيها بعد اختمارها وتوسع الفصول بين سطورها، ثم تحرر على ثقة تصحبها، وتتأمل بعد التحرير من أولها إلى آخرها"[٤]، فقد مرت بخمسة مراحل: الاولى يصحبها الفكر إلى استقرارها، وهي مرحلة الكتابة التي تتطلب جوانب احترازية ذكرها الجاحظ والثانية: تستبرأ بإعادة النظر فيها بعد اختمارها، والاستبراء يعني المفارقة[٥] أي تبدأ مرحلة التنقيح بعد سكون الطبيعة وهدوء الحركة وتراجع الاخلاط التي أشار الجاحظ اليها والثالثة: توسع الفصول بين سطورها، ولعل المقصود بذلك توسع الفصل بين سطورها في الكتابة، وهو مانطلق عليه اليوم بنقلها من المسودة

---

[١] ينظر: المصدر نفسه ٦/٧.

[٢] مختار الصحاح "خلط".

[٣] المصدر نفسه "وفر".

[٤] أدب الكتاب ١٥٨/٢.

[٥] ينظر: مختار الصحاح "برأ".

إلى المبيضة والرابعة تحرر على ثقة تصحبها، "وتحرير الكتاب وغيره تقويمه"[١]، أي نقده حتى يستقيم، والخامسة تتأمل بعد التحرير من اولها إلى آخرها، وهي مرحلة القراءة، وفيها تصبح صالحة للنشر يكون المؤلف فيها اول قارئ لها. وقد اختلف عصرنا عما سبق اختلافاً كبيراً، فالكتاب يؤلف ويبقى سنوات عديدة مجهولاً لايعرفه الا المؤلف، نفسه، لان فرص الطبع لاتتوفر، واذا توفرت فرصة لكتاب ثمين ومؤلف جليل فلا ينقح الا بعد طبعه ونزوله إلى الاسواق ووصوله إلى مدن بعيدة واقطار متباعدة وبعد طبعته الاولى بسنوات عديدة، وفي كل طبعة يرجو ويأمل المؤلفون المتواضعون في مقدمات كتبهم من قرائهم ان يزودوهم بملاحظاتهم ونقدهم، وينبهوهم إلى أخطائهم ويثبتوا عناوينهم في آخر مقدماتهم ليراسلوهم –وأنى لهم؟ وقد تباعدت الشقة –وكثرت المشاغل، وتعقدت الحياة وقل القراء واختلط الحابل بالنابل، فصار الخامل مشهوراً، واللامع المشهور مجهولاً.

أشار الجاحظ إلى صعوبة التنقيح، وقارن بينه وبين التأليف فنظر اليه نظرة الكتاب المنقح، قال: "ربما اراد مؤلف الكتاب ان يصلح تصحيفاً أو كلمة ساقطة، فيكون إنشاء عشر ورقات من حر اللفظ وشريف المعاني، ايسر عليه من اتمام ذلك النقص حتى يرده إلى موضعه من اتصال الكلام"[٢]، والسر في ذلك ان التنقيح في حقيقته إصلاح الفاسد، والتأليف انجاز عمل لم يحكم عليه بعد بالصلاح أو الفساد، مما يجعل المؤلف حراً والمنقح ملزماً، والمؤلف يحتاج القدرة أو الموهبة، بينما يحتاج المنقح الموهبة مضافاً إليها خبرة، والخبرة تعني اطلاعاً واسعاً باللغة وقواعدها وطرق التعبير فيها وفنون بلاغتها، وقد "قال بعض الكتاب: ليس الكتاب في كل وقت على غير نسخة، ويحرر بصواب، وكل أوان، لانه ليس أحد اولى بالأناة والروية وتوقي الاغترار من كاتب يعرض عقله وينشر بلاغته"[٣]، والعبارة الأخيرة دقيقة في التفسير لأن التنقيح –على وفقها– يعني تقويم نتاج العقل واسلوب التعبير وأعجب من ذلك ان المنقح "يأخذ بأمرين، قد أصلح الفاسد، وزاد الصالح صلاحاً"[٤]، والتعميم في هذه العبارة لطيف، لان الفاسد في الأخلاق يعني الضار الذي لاينفع، بل يسبب أذى، وفي الجمال يعني القبيح الذي لايتفق ومتطلبات الطبيعة

---

[١] المصدر نفسه "حرر".

[٢] الحيوان ٧٩/١.

[٣] أدب الكتاب ١٥٧/٢.

[٤] الحيوان ٧٩/١.

السوية ولطالما جاهد المصلحون وسعى الفلاسفة وتغنى الشعراء بهذه القيم الثلاث: الخير والحق والجمال، وكأن المنقح يحقق بعض هذه القيم عندما يصلح كلمة ضعيفة أو لفظة سخيفة أو موضعاً من التأليف مستكرهاً أو مضطرباً، لأن اللفظة السخيفة خطأ في الدلالة ينافي الحق، والموضع المستكره أو المضطرب عيب يفتقر إلى الوحدة والانسجام.

لاتخلو السقطات التي تعرض في الكتاب من ان تكون كلمات ضعيفة أو ساقطة أو مصفحة أو ألفاظ سخيفة، أو مواضع مستكرهة أو مضطربة ويمكن وصفها بأنها الفاظ تدل على معان، أو معان معبر عنها بألفاظ، وتنضوي تحت نشاط إنساني هو اللغة، التي يتفاهم الناس بها، وتعبر عن مستواهم الحضاري، وقد عنى الجاحظ بها في التأليف والتنقيح، فنظر اليها من خلال المجتمع، فرأى "ان الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام، وصارت افهامهم لاتزيد على عاداتهم الا بأن يعكس عليها ويؤخذ بها"[1]، والنص يعبر عن دلالات عميقة توشك ان تكون قانوناً لغوياً واجتماعياً، ولعل الجاحظ كان يهدف إلى ذلك، لأنه عمم الفكرة على الناس كلهم وصياغة النص بأساليب القانون هكذا: الافهام- أي قدرة الناس على استيعاب الكلام- تساوي العادة والعادة كل مااعتاد عليه الانسان وألفه، ولهذا ستكون القيم والتقاليد والنظم وطرق العيش واساليب العبادة كلها عادات، وكلها ستؤثر على مستوى فهم الناس للكلام، ولعل ابن طباطبا العلوي "المتوفى سنة ٣٢٢هـ" قد وسع هذه الفكرة وطبقها على الشعر فذهب إلى ان العادات تؤثر على مضامين التعبير الفني، ذلك "ان العرب اودعت اشعارها من الاوصاف والتشبيهات والحكم مااحاطت معرفتها وأدركه عيانها، ومرت به تجاربها وهم أهل وبر: صحوتهم البوادي وسقوفهم السماء..."[2]، واذا كان ابن طباطبا قد نظر إلى الناس من خلال العرب الساكنين في البادية، فإن الجاحظ قد نظر اليهم من أفق أرحب، فذكر أنهم اعتادوا المبسوط من الكلام، أي اعتادوا ان يفهموا مايتفق وسعتهم في الفهم وطاقتهم عليه وما

---

[1] الحيوان ١/٩٠.

[2] عيار الشعر، ص١٠.

يسع عاداتهم المختلفة وحاجاتهم الكثيرة، واذا اراد المؤلف ان ينقح كتابه فعليه ان يراعي هذا المقدار من الفهم، "فليس له ان يهذبه جداً وينقحه ويصفيه حتى لاينطق الا بلب اللب، وباللفظ الذي قد حذف فضوله واسقط زوائده، حتى عاد خالصاً لاشوب فيه"[١]، وكأن الجاحظ قد دخل هنا إلى دراسة الاسلوب، الثاني يتكون من معان معبر عنها بألفاظ، والمعاني تحتوي افكاراً ومشاعراً واحاسيساً، ولطالما اسهب النقاد العرب في دراسة الألفاظ والمعاني وخصائصها ومطابقتها وصفات الحسن والقبح فيهما[٢] ويبدو من النص السابق للجاحظ انه قد ضيف على التنقيح دائرة الاسلوب، واطلق يده في السقطات، ولعله كان يعتقد ان لكل كاتب اسلوبه الخاص المعبر عن فكره واحساسه، فقد يميل إلى صيغ معينة وتراكيب خاصة ويكثر من جمل اعتراضية والفاظ مترادفة وتأكيدات متعددة فإذا عد المنقح هذه الاساليب من باب الفضول والزوائد فحذفها واسقطها مما يجعل النص لاينطق الا بلب اللب، واللب هو العقل، أي ان الاسلوب اصبح يتكلم بعقل أخرس، لان وسائله في التعبير وهي الالفاظ اصبحت قاصرة، "وانه ان فعل ذلك، لم يفهم عنه الا بأن يحدد لهم افهاماً مراراً وتكراراً"[٣]، لأنهم اعتادوا ان يفهموا المبسوط من الكلام الذي يعبر عن حاجاتهم الكثيرة والمتجددة بألفاظ وصيغ كثيرة ومتنوعة تستجيب لمتطلبات الحياة الواسعة، فإذا حذف كثيراً من هذه الصيغ والالفاظ فعليه ان يقودهم حوار الخرسان، وان يبذل معهم جهداً صادقاً على وفق هذه الطريقة الناجحة في التلقين التي تسمى "مراراً وتكراراً".

كان حديثنا السابق عن الجاحظ منظراً للتنقيح، فهل نقح كتبه في حياته. ذكرنا سابقاً ان الجاحظ لم يسلم من انتقادات قرائه، وخاصة في تقويمهم لكتابه الحيوان وانهم رأوا في خطته افتقاراً إلى الوحدة والترتيب بين الفصول والارتباط بين أجزائه فضلاً عن مآخذهم على حجم الكتاب واستطراداته، والجاحظ نفسه هو الذي روى انتقاداتهم وفي الحيوان

---

[١] الحيوان ١/٩٠.

[٢] ينظر: الشعر والشعراء ١/١٢-١٥، فن الشعر، ص١٩٠-١٩٥.

[٣] الحيوان ١/٩٠.

بالذات، وقد عاتبهم على ذلك، مما يعني ان النسخة التي وصلت الينا من كتاب الحيوان كانت منقحة، ومنقحها هو الجاحظ نفسه، وقد صدرت من هذا الكتاب اكثر من ابرازه، أي طبعة بمفهومنا الحديث، الا ان الجاحظ لم يأخذ بانتقادات قرائه، فلم يعدل في منهج الكتاب أو يقلص من حجمه أو يحذف من استطراداته، لأن ذلك يتفق ومنهجه في التنقيح الذي ذكرناه سابقاً من انه قد ضيق على التنقيح دائرة الاسلوب واطلق يده في السقطات، فمن المرجح ان الجاحظ قد نقح في الحيوان الكلمات الضعيفة أو الساقطة أو المصحفة، وكذلك المواضع المستكرهة أو المضطربة، وابقى على الجوانب المنهجية لانه مقتنع بضرورتها والحاجة اليها، فلم تكن –باعتقاد الجاحظ– اخطاء منهجية، بل هي أركان منهج كان قاصداً اليها، وعلى وعي بها وان القراء هم الخاطئون، لأنهم لم يقفوا على حدودها ويتفكروا في فصول الكتاب، فيعرفوا معناها، ويطلعوا على غورها.

الخاتمة

لانريد تلخيص البحث أو استخلاص نتائجه كلها لأن القارئ قد اطلع عليها في مواضعها، ولكن الشيء الذي نود استخلاصه ان محاور البحث ثلاثة: القارئ والمؤلف والكتاب، وان تكافؤ اضلاع هذا المثلث قوة أو ضعفاً يعبر عن مستوى الثقافة رقياً أو انحطاطاً، والاصدقاء الثلاثة كانوا في عصر الجاحظ سعداء، وان مرت بهم أزمات، أو نغصت حياتهم مشاكل لايخلو منها عصر ومكان. كانت مشاكل العلماء في عصر الجاحظ التنافس فيما بينهم وسعي بعضهم وراء الشهرة أو المال، والتحاسد على الحظوة عند السادة، الا انهم كانوا مثابرين وعلماء محقين، جاهدوا طيلة حياتهم في سبيل العلم، انكبوا على الكتب، وطافوا في البلاد، وحفظوا ماقرأوا، وتدبروا ماحفظوا، وناظروا والقوا. وكانوا سعداء، لان القراء في عصرهم كثيرون، وكانوا يطالعون ويدرسون، وفريق منهم يتكلفون القراءة والمدارسة، ويبحثون عن السقطات وينقدون، مما يعني ان جمهور القراء كان مثقفاً، وان كان الجاحظ قد شكا من قسم منهم، وتبرم بآخرين ولما كانت حياتهم بسيطة ومشاغلهم قليلة، كان الكتاب صديقاً لهم ورفيقاً في حياتهم، وقد كثر مؤلفوه

وناسخوه، وكل منهم قد سعى إلى تمجيده ورفع شأنه، فالمؤلفون ابدعوه، والقراء نشروه وأذاعوه، والنساخ حفظوه وخلدوه، مما يعني ان الثقافة في ذلك العصر كانت راقية، والحياة العقلية ناضجة.

يبدو لي ان البحث أظهر هذه النتائج، وصور تلك الحياة، فهو دراسة للحياة العلمية من خلال المؤلفين، وللحياة الاجتماعية من خلال القراء، وللحياة الثقافية من خلال الكتب.

مصادر البحث

١. القرآن الكريم.

٢. أدب الكتاب، أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (ت٣٣٦هـ)، نسخه وصححه محمد بهجة الاثري، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤١هـ.

٣. اصول نقد النصوص ونشر الكتب، محاضرات المستشرق الالماني برجستراس بكلية الآداب سنة ١٩٣٢/٣١، إعداد وتقديم د. محمد حمدي البكري، مطبوعات دار الكتب ١٩٦٩، وزارة الثقافة، مركز تحقيق التراث.

٤. البيان والتبيين، أبو عثمان الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة المدني، الطبعة الخامسة، ١٩٨٥، الناشر مكتبة الخانجي.

٥. الجاحظ، حياته وآثاره، د. طه الحاجري، دار المعارف، مصر، ١٩٦٢، مكتبة الدراسات الادبية (٢٨).

٦. حلية المحاضرة في صناعة الشعر، أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي (ت٣٨٨هـ)، تحقيق د. جعفر الكناني، دار الحرية للطباعة، بغداد، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، ١٩٧٩.

٧. الحيوان، الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط١، ١٣٢٦هـ-١٩٣٨م.

٨. دائرة المعارف الاسلامية، أصدرها جماعة من المستشرقين، إعداد وتحرير إبراهيم زكي خورشيد ورفيقيه، دار الشعب، القاهرة.

٩. رسائل الجاحظ، الجاحظ، ت: عبد السلام محمد هارون، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٤.

١٠. شرح مايقع فيه التصحيف والتحريف، أبو احمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري (٢٩٣-٣٨٢هـ)، تحقيق عبد العزيز احمد، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، مصر، د.ت.

١١. علم الجمال، دني هويسمان، ترجمة ظافر الحسن، منشورات عويدات، بيروت، ط٢، ١٩٧٥.

١٢. العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث، تأليف د. جون ب. ديكسون، ترجمة شعبة الترجمة باليونسكو، عالم المعرفة، الكويت، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

١٣. فلسفة الجد والهزل، الجاحظ، قدم له وشرح لغوياته د. الشيخ محمد علي الزعبي، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٩، سلسلة خزانة التراث.

١٤. فن الشعر، د. احسان عباس، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٥٩، الفنون الأدبية (٣).

١٥. الفهرست- أبو الفرج محمد بن أبي اسحق الوراق، اعتنى بها وعلق عليها الشيخ ابراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

١٦. مجموع رسائل الجاحظ، الجاحظ، تحقيق د. محمد طه الحاجري، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢.

١٧. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت٦٦٦هـ)، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٦٧.

١٨. معجم الادباء، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي (ت٦٢٦هـ)، مطبوعات دار المأمون، مصر، سلسلة الموسوعات العربية.

١٩. منهج البحث الأدبي، د. علي جواد الطاهر، مطبعة أسعد، بغداد، ط٣، ١٩٧٦.